القسم الثامن

الامير عبد القادر الجزائرى

زعيم وأمـــير وجندى وقائد ثورة

« إذا صقلت بارق سيفى »
« وأخذت بالقضاء يدى »
« رددت الانتقام على أعدائى »
« وفرضت القصاص عليهم »
نشـــيد موسى النبي فى
سفر التثنية

رأيت كيف تلقى العالم الإسلامى بوجوم انباء الاعتداء الفرنسى على الجزائر ، وكيف احتات فرنسا السواحل والناس فى شغل عن هذا كائن الأمر لا يعنيهم ، فألقى عبء الجهاد على أهل الجزائر ، يقاتلون ويقتلون ويشردون . والقـــطر الجزائرى ساحل ممتد

الأطراف على مسافات شاسعة ، فأصبح لكل مدينة على البحر جبهة قتال ، قائمة بذاتها .

ففى جبهة مدينة الجزائر زحف القائد الفرنسى إلى الداخل ، واحتل مدينة البليدة وقدم أهلها الطاعة بين يديه ، ولكن دعوة الجهاد والدفاع عن الوطن انتشرت بين القبائل فى الجبال المحيطة ، فتجمعت الجموع ، وزحفت إلى القتال ، وفى اليوم الثالث من احتلال المدينة اقتحمت قوات المجاهدين أسوار البليدة ، وهزمت جنود فرنسا ، فاضطر القائد العام أن ينسحب مع من بقى من جنده عائدا إلى الجزائر ، حيث دعى إلى بلاده ، فآثر أن يعش بأسبانيا وجاء قائد آخر أخذ يدبر الأمور ، لاتمام الاحتلال ، تارة بالسيف وأخرى بالخديعة ، وبذل الوعود .

فى هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى سلطان مراكش ، واجتمع أهل العقد والحل من سكان الجزء الغربى ، وأرسلوا وفداً إليه ، يطلبون معونته ، فأجابهم إلى مطلبهم ، وبعث بأمير من أولاد عمه ، فلقيه الناس بالطاعة ، ووصلت طلائعه إلى ناحية مليانه شرقا ، ولكن فرنسا أسرعت وكلفت ممثلها لدى البلاط الشريفى أن يحتج على هذا التدخل ، فاضطر سلطان مراكش أن ينسحب بجنوده ، وأن يستدعى ابن عمه إليه ويترك أمر الجهاد لأهل البلاد .

كانت الدعوة إلى الجهاد عامة يشعر بها الناس كافة : من عرب وبربر ، ومن أهل الحضر ، وأهل الجبال والبادية ، وكانت الحرب فى كل ناحية قائمة ولكن كانت تنقص الدعوة القيادة المنظمة التى تجمع الشمل ، وتنظم الجهود ، وتحرك المشاعر ،وتدفع هذه القوى الروحية نحو الغاية الكبرى .

ولقد شاءت العناية الإلهيه أن تختار هذا القائدمن جبهة وهران على الحدود المراكشية ، ففى سنة ١٨٣٢ قامت سرية من المجاهدين عقد لواؤها للسيد عبد القادر بن زيان بحركة كشفية ، حول أرباض المدينة وفى موضع يقال له خنق النطاح التقت السرية بفصائل العدو واشتبكت معها فى معركة تعرضية ، وفى اليوم التالى أدركتها حشود المجاهدين فدخلت القتال متراصة زاحفة ، فانتصرت انتصاراً باهراً وفرّ العدو منهزما ، متراجعا إلى مدينة وهران.

وفى وسط المعركة ظهرت مخايل النجابة والبطولة ، والقوة والفتوة على الشاب عبد القادربن السيد محي الدين الذى ماانفك مع والده يحرض المسلمين على الجهاد ، ويبوىء المقاتلين مقاعد للقتال كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وقد عرف الناس فيه الحزم والعزم والعقل السليم والصبر فى القتال ، فجاءت المعركة فإذا بالشجاعة

وقوة البأس تظهران عليه ، وهو يخترق الصفوف ويباشر القتال بيده ، لنصرة دين الله . وبينما هو يخوض وسط المعمعة تحامل عليه فارس من فرسان فرنسا برمحه ، فإذا بالطعنة تمر تحت إبطه الأيسر فشد عليه عبد القادر بعزمه وقوته ، وهوى بسيفه على الفارس ، فإذا بالسيف يقطع كتف الفارس نصفين ، فكانت آية من آيات الله تناقلها الناس ، وسرى ذكرها بينهم . وتلقى جواده ثمانى طعنات ، ثم أصيب بالرصاص تحته ، فنزل وترجل واستمر يقاتل فى مواجهة العدو ، وهو على قدمه ثابتاً فى مواقعه ، حتى جاء النصر من عند الله ، وتقهقر العدو منهزما ، لا يلوى على شىء ، وبات المسلمون ليلتهم فى التهليل والتكبير .

هذه بداية القائد الشاب بطل الاستقلال الجزائرى ، وصاحب المواقف الخالدة ، بين سنتى ١٨٣٢ و١٨٤٧ ، الذى تمثل فى عبقريته عراك أمة وكفاح شعب يقاتل فى سبيل مثله العليا والذى أمضى ستة عشر عاما فى الحروب لم يدع فيها القتال والتصادم والكر والفر فاعاً عن حومة الدين ، وعن حرية الوطن الشهيد وظهرت فيها صفاته وميزاته للقيادة والزعامة ، وضرب للناس مثلا بتمسكه بالمبادىء والأهداف التى قام من أجلها ، فأسبغ عليها عملا متواصلا لا يحيد عنه ولا يرجع

وبرزت نفسه القوية التى لاترهبها الأهوال والنكبات ، ولا تغيّرها الانتصارات المتتابعة ، ولا تنقص من حماسها النكبات والهزائم .

ستة عشر عاماً من المعارك المتواصلة ، لاتتخللها غير فترات قصيرة من السلم والراحة ، أفردها للتنظيم والإنشاء . والدعوة إلى الله ، والعمل لبناء دولة ناشئة ، القيت أعباؤها عليه بأكملها ، إذ واجه مشاكل السياسة مع مصاعب الحروب ، وعالج الهزائم والدسائس بنفس عالية ، فيها قبس من أخلاق السلف الصالح ، وفيها تلك النواحي القوية التى أفرغها الإسلام على قواده وزعمائه من قوة أمام الأخطار ، وصلابة فى الحق ، وتمسك بالعروة الوثقى مع تواضع ، وصبر على المكاره ، وحوادث الزمن .

كان هذا فى وقت عصيب واجهت فيه الجزائر أكبر محنة فى تاريخها ، يوم دعيت وحدها للدفاع عن أراضيها ، ويوم ضعفت النفوس ، وتفرقت القوى بين عناصر متشاحنة ، وقبائل متنافرة . هنا ظهرت شخصية عبد القادر كمنشىء دولة ، وقائد جيش ، وزعيم أمة .

إن عظمة عبد القادر لاتظهر فى انتصاراته وحدها ، وانما فى تغلبه على متاعبه ، وفى شجاعته وسط الهزائم ، والدعوة إلى الانشقاق والخيانة وفى مواجهة دعاة الويل والهزيمة . وزمرة

المنافقين ومن لازمهم) هنا تعلو حيوية عبد القادر على الحوادث حينما تراه مجاهداً ، لاتهمد عزيمته وسط الأخطار ، ومكائد العدو والبحر مغلق أمامه ، والعالم الإسلامى يغط فى نومه ، فلا يخفف عنه إلا ذكر الله ، والدعوة إليه وإيمانه بأن إرادة الشعب الجزائرى قد تمثلت فى إرادته ، وان الله قد اختاره لعمل كبير ، هو انقاذ هذه الأمة وقيادتها إلى الجهاد فى سبيل الله.

تقلب صفحات تاريخه ، وتسمع أقوال الخصم عنه ، وتنصت لنظمه وشعره ، وتقرأ رسائله ، فتلمس رجلا قد أوتى حظا من الإيمان ، والثقة بالله ، مما جعله فوق المستوى العادى للرجال كان ممن إختارهم المولى جل وعلا لعمل خالد ، فقد كان يعلم بأن أمامه دولة قوية ، قد أفرغت فى القتال كل قوتها ، وصممت على فتح بلاده ، واستعانت بما أخرجه الفن والعلم فى الحروب ، وقد خرجت من تجارب حروب ومعارك ، ومع ذلك وقف وقفته ، وكان يشعر بأن أعداءه فى الداخل لايقلون خطراً عن أعداء الوطن ، فتقبل بالرضا حكم الأقدار ، وقاد بلاده هذه السنين ، وهو واثق من نفسه لا معين ولا حليف له ولا أمل لديه إلا همة السيوف التى خرجت من أغمادها ، ووقفت معه .

نعم فى وسط المكائد والهزائم والدعوة إلى الهزيمة تعلو قوة عبد القادر ، فتخلق من الهزيمة قوة ، وتدعو إلى الله ، وتعمل على جمع الشمل فيقود الأمة الجزائرية إلى كفاح طويل إلى المجد .

ذلكم هو بطل الاستقلال الجزائرى وأول مسلم تلقى بصدره حلقات الهجوم المضاد ، الذى شنه الغرب علينا لانتزاع أراضينا .

حينما أكتب عنه أستعيد ذكرى حادثين أثّرا فى حياتى : أما الأول فصورة زيتية للأمير عبد القادر رأيتها فى السوق الخيرية التى أقيمت بحديقة الأزبكية ، انصرة المجاهدين من أهل طرابلس ، لما اعتدت إيطاليا على أراضيهم . رأيته على جواده ، وقذائف المدافع تنفجر من حوله ، فوقفت مأخوذاً ، وكنت فى العاشرة ، فإذا بصاحب المؤيد الشيخ على يوسف يحدثنا عن بطل الجزائر ، ومن ذلك اليوم انطبعت فى نفسى صورة القائد الزعيم وحرصت أن أقرأ عنه ، وأتعرف إلى معاركه وأيامه .

أما الحادث الثانى : فيوم وقفت على قبره تحت قبة سيدى محيى الدين ابن عربى بمدينة دمشق . لقد كان الشوق إلى زيارة الضريحين شديداً طوال سفرى من أنقرة ، ولما تم اللقاء ، وقفت أمام هذا القبر أستمطر الرحمة على بطل الاستقلال ، ومرت أمامى صفحات الجهاد وأسماء البلاد فى الجزائر :

وهران . قسنطينة . تلمسان . المعسكر . مستغانم . البليدة . مليانة ، وذكريات المعارك الخالدة فى فى رأس العين ، وخنق النطاح ووادى الزيتون ، وغيرها من مواقفه .

وفى باريس صورتان كبيرتان ، تمثلان عراك الأمير وجنود فرنسا ، وتقتحم الصفوف أعرفهما . قيل أن الأمير وقف أمامهما عند زيارته للعاصمة الفرنسية وقال : أراكم تمثلون جنودنا منهزمة ، فهلا نظرتم ورسمتم المعارك الكبيرة ، التى ولى فيها جنودكم الأدبار.

وفى قصر العجزة حيث متحف الجيش الفرنسى نجد الآثار والأعلام والأسلحة من بقايا حروب عبدالقادر ، لقد كنت ألمسها ثم أقبل يدى التى لمستها وانحنى أمامها ، وأقول هل أعيش لأرى الجزائر حرة ، وقد خلعت استعبادها ، وأسمع أناشيد الأمير من مقصورته التائية ترتل فى مدارس القطر الشهيد .

ونحن لنا دين ودنيا تجمعّا
ولا نفخر إلا مالنا يرفع اللوا
وانا سقينا البيض فى كل معرك
دماء العدى والسمر أسعرت الجوى

* * *

أريد أن أشرح معاركه ، وأكتبها ليقرأها أبناء مصر العربية ،

ويروا آيات المجد والبطولة، ولكن الزمن يسير بخطوات سريعة ، وأريد أن أحدثهم عن يوم تجمعت فيه أحكام القدر ، فألقى البطل سلاحه ، واستأمن للخصم ، على أن يذهب للاسكندرية ، فخنثت فرنسا بإيمانها ومواثيقها وعهودها ، وقادته أسيراً إلى فرنسا حيث أمضى مع والدته العجوز وأهله خمس سنوات فى الأسر ، يحن فيها إلى البلاد التى أراد دفع الشر عنها ، ثم أطلق سراحه ، فإذا طريقه إلى دار الخلافة حيث يلقى السلطان عبد المجيد العثمانى . وبعد إقامة يسيرة فى بروسة يذهب إلى دمشق ، وهناك يعيش حتى يرقد رقدته ليترحم عليه محبوه . أما أنا فقد قرأت حين وقفت على ضريحه قوله تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)

(آل عمران)

ذلك لإيمانى أن أمة تنجب عبد القادر لن تموت ، بل ستبعث بعثاً يهز الأرجاء ، لأن الدرس الذى ألقاه علينا كان درساً يحرك النفوس ، ويدفع للعمل لقرون قادمة . إنه قوة من قوى الذات الإلهية التى بعثها لخير الناس ولما خطه الله فى سجل القدر ، من أن تحيا الأمة الجزائرية ، لتعود إلى أيامها الأولى ، أيام المرابطين والموحدين .